تأثير جماليات الشعر العربي على الذائقة النقدية للمستشرقين وأثرها في تحقيق النصوص الجاهلية: كارلوس لايل نموذجًا

أ.د. وافي صلاح الدين حاج ماجد

رئيس قسم اللغة العربية وآدابها

الجامعة العالمية في بيروت

لبنان

البريد الإلكتروني: wafimajid@gmail.com

الاستلام	٢٠٢١/٢/٤	المراجعة	٢٠٢١/٣/١٥	النشر	٢٠٢١/٤/١

الملخص:

ليس خافيًا حجم الجهود الكبيرة التي بذلها المستشرقون خلال القرون الثلاثة الماضية في دراسة الشعر العربي، حيث تعددت اتجاهاتهم في مقاربة النصوص الشعرية: تحقيقًا لمخطوطات الدواوين المفردة والمجاميع الشعرية، أو جمعًا لأشعار بعض الشعراء المتناثرة في بطون المصادر القديمة، أو شرحًا لمادتها اللغوية، أو نقدًا وموازنة، أو إعادة قراءتها ودراستها على وفق الرؤى والمناهج المقررة في المدارس الأدبية الغربية الحديثة. لكنّ ما يستوقفنا هو مقاربة التحليل الذوقي لجماليات القصيدة العربية الجاهلية بما ينسجم مع روح النص العربي الذي يمثل الحياة العربية لذلك العصر، ويعكس التجربة الوجدانية للشاعر العربي آنذاك، وهنا تكمن إشكالية البحث، التي اقتضت اعتماد المنهج التحليلي؛ ولا سيما عند تناول هذه المسألة في نتاج مستشرق تشبع وتضلع من الأدب العربي الجاهلي واللغة العربية وعلومها، وأفنى عمره في دراسته والتأليف فيه، وهو المستشرق الإنجليزي كارلوس يعقوب لايل. والبحث ينطلق من النظر في أبرز أعماله في تحقيق وترجمة بعض الدواوين والقصائد المختارة لشعراء جاهليين، وبالأخص تحقيقه لشرح الأنباريّ على ديوان المفضليات، الذي يعد أهم أعماله وأكبرها. وعليه فإنه يمكننا تلخيص إشكالية البحث في الآتي:

الكلمات المفتاحية:

القصيدة الجاهلية – المستشرقون – الذائقة النقدية – جماليات النص – كارلوس لايل.

The Effect of Arabic Poetry Aesthetics on the Orientalists Critical Taste and Its Influence on the Study of Jahili Texts: The Example of Charles James Lyall

Prof. Wafi Haj Majid

Chairman of the Department of Arabic Language and Literature at Global University in Beirut.

Email: wafimajid@gmail.com

Received	4/2/2021	Revised	15/3/2021	Published	1/4/2021

Abstract:

It is not unobvious the extent of efforts made by orientalists within the last three centuries in the study of Arabic poetry where various approaches were undertaken towards the poetic texts: whether it was studying individual or group manuscripts of collection of poems, or aggregating some poets' dispersed works within old references, or explaining its linguistic content, or criticism and synthesis, or re-studying them in light of modern Western curricula. However, what interest us is the approach of dispositional analysis of the aesthetics of the Jahili Arabic poem within the spirit of the Arabic text representing Arab life in that era, reflecting the existential experience of the Arab poet then. This is the research problem which required the analytical approach especially when undertaken within the work of an orientalist who was saturated and consolidated in the Jahili Arabic literature as well as the Arabic language and its sciences, one who spent his life studying this field and writing in it: The orientalist Charles James Lyall. The research starts with an overview in his most eminent work in studying and translating some poetic collections and some chosen poems of Jahili poets. In particular, his study of the Anbari's explanation of the Mufaddaliyyat collection which is considered his most important and significant work. And thus the research problem is summarized as follows:

To what extent was Lyall able to hone his aesthetic taste in understanding the dimensions of the Jahili poem and delving into its depth all while connecting his efforts to the textual structure and its linguistic expression? What are the disciplinary principles used? Where did he demonstrate his understanding and degustation of these aesthetics? How did he enlist this cumulative growth of taste in the conclusion of his critique? How did his performance influence the work of others and the direction of critical orientalist studies? What is the scientific value of such experience that made him so special, and what would be the most important results concluded?

Key words:

Jahili poems - The Orientalists – Critical Taste - Poetry Aesthetics - Charles Lyall.

المقدمة:

يتطلب تحقيق النصوص الشعرية العربية عمومًا والجاهلية منها خصوصًا عددا من المهارات والخبرات التي تقتضيها جودةُ هذا العمل المعرفي المهم ودقةُ نتائجه المحصلة؛ إذ شتان ما بين تحقيق تجاري أو سطحي ساذج ليس فيه من التحقيق رسمه ولا وسمه، وبين تحقيق علمي رصين ومنهجي هو العمدة للباحثين والبغية للطالبين. ومن المعلوم أن التحقيق الدقيق للنصوص الشعرية هو باب مقصود لذاته ولغيره، لأنه يترتب على نتائجه جملة من التصورات والمواقف والأحكام النقدية بما تحمله من إضافات أو تعديلات ربما تبنى عليها نظريات نقدية جديدة، وإجابات على إشكاليات سابقة تتصل بشاعر ما أو حقبة شعرية أو اتجاه شعري، وهو قطعًا يثري الدراسات الأدبية والنقدية ويفتح آفاقًا مهمة في البحث الأدبي، ولا سيما في حقل النقد الأدبي المقارن. ومن هنا تأتي أهمية النظر في نتاج المستشرقين المتعلق بتحقيق الشعر العربي وجهودهم الحثيثة في محاولة قراءته وتحليله وتذوقه من منظور مغاير للمنظور العربي التقليدي، سواء كانت تلك المحاولات وليدة النظريات الأدبية الغربية الحديثة أو النظريات النقدية العربية الكلاسيكية على تباين مدارسها واتجاهاتها من الأصمعي وابن المعتز والجاحظ إلى الجرجاني وحازم القرطاجني ومن دار في فلكهم من المتقدين والمتأخرين.

ومن تلك المهارات الأساسية المطلوبة في التحقيق المنهجي الرصين لنصوص الشعر الجاهلي أن يتحلى المحقق بثقافة أدبية وتاريخية واسعة ودقيقة وتضطلع غني من اللغة العربية وأساليب العرب القدماء ومناحي كلامهم وتصرفهم في دلالات المفردات والتراكيب، مع إلمام بأنسابهم وحياتهم وبيئاتهم وشؤونهم المختلفة، وذلك ليكون ذا اقتدار على بلوغ الفهم الدقيق والواقعي والتذوق الجمالي الرفيع لأبعاد النص إن كان فيه أبعاد جمالية حقيقية، دون الوقوع في مزالق التأويلات البعيدة والمتكلفة، أو افتعال دلالات وأبعاد تحمّل النص ما لا يتحمّله، أو تنقص منه جوهر جمالياته، أو تلصق به نقائص هو منها براء.

ظهور نجم كارلوس لايل:

وبالعودة إلى الحديث عن جهود المستشرقين النقدية في تحقيق النصوص الشعرية العربية، نجد أن بينهم اسمًا لامعًا تميز بنظرة نقدية تحليلية للشعر الجاهلي عن معظم أقرانه، هو الناقد كارلوس يعقوب لايل (أو تشارلز جيمس لايل)؛ فكانت له قراءته الخاصة التي كانت أقرب إلى النفَس العربي والذهنية العربية الجاهلية من الذهنية الأوروبية التي حاكمت الشعر العربي في كثير من الأحيان استنادًا إلى المنطق الشعري الغربي لا المنطق العربي، بجعل المنطق الغربي معيارًا تقاس على أساسه القصيدة العربية، ويحكم عليها من خلاله، كما هو الحال – مثلا - في اعتبارهم تقسيم الشعر إلى غنائي ذاتي (Lyric) وملحمي (Epic) ومسرحي (Drama) (Lyall, 1930, xviii)، أو في اعتماد مبدأ الوحدة العضوية للقصيدة معيارًا للحكم على تماسك القصيدة وجودتها.

إذا أنعمنا النظر في جملة أعمال كارلوس لايل في تحقيق النصوص الجاهلية وترجمتها وتحليلها، وفي تناوله لعدد من القضايا النقدية ذات الصلة بالشعر العربي القديم فإننا نجد أنفسنا أمام بحّاثة تأثر بالشعر العربي الجاهلي إلى حد الافتتان بل قل إنه قد ذاب فيه، لكنه ذاب فيه بوعي ونضج رفيعين وذائقة نقدية صقلتها حياته سنين طوالا في أعماق الشعر وبيئاته، ووشغفه بالغوص في ذهنية الشعراء وما بين سطور الأبيات ودلالات الكلمات والتراكيب والأساليب العربية، وكأنّه قد غدا واحدا من أصحاب حماد الراوية أو الأصمعي أو المفضل الضبي.

عناصر الرؤية النقدية المتكاملة لكارلوس لايل:

هذا التأثر العميق لكارلوس لايل بالشعر الجاهلي تجلى في رؤية متكاملة الأبعاد، تتمثل في تذوقه للشعر من خلال المحاور الآتية، والتي تشكل لُباب هذه الدراسة:

١. فهمه طبيعة الشعر الجاهلي وخصوصياته الفكرية والفنية التي تميزه عن شعر الأمم الأخرى.
٢. فهمه بيئة هذا الشعر الاجتماعية، وهي الأمة العربية التي هو منها صدر وإليها يعود.
٣. فهمه الذهنية الفردية الخاصة للشاعر العربي، وبواعثه النفسية على قول الشعر وارتباطه الروحي به.
٤. فهمه جوهر القصيدة الجاهلية وكيانها الذاتي العميق الذي يرسم هويتها ويحدد منطلقاتها الجمالية.
٥. إثباته صحة الشعر الجاهلي، ورده على المشككين فيه.

ومن خلال هذه الرؤية المتكاملة التي شكلت منهجا فريدا في تحليل القصيدة الجاهلية وتذوق جمالياتها استطاع لايل أن يقدم بجسارة وثقة على تحقيق القصائد والدواوين الجاهلية، ظهرت من خلال الترجمة الدقيقة للأبيات، والمفاضلة والاختيار بين بعض روايات البيت الواحد، كما ظهر في تحقيقه لبعض قصائد المفضليات.

أولا: فهمه طبيعة الشعر الجاهلي وخصوصياته الفكرية والفنية التي تميزه عن شعر الأمم الأخرى:

من هنا بداية المنهج المتكامل في الرؤية النقدية لكارلوس لايل، بل هو الركن الأساس فيه، وهو ليس الحالة الوحيدة في ذلك بين المستشرقين؛ إذ فطن بعضهم للفروق التي بين طبيعة الشعر العربي والشعر الأوروبي كالمستشرق الألماني ثيودور نولدكه (Theodor Noeldeke)، والألماني ڤلهلم آلڤرد (Alwardt, Wilhelm) الذي بيّن في دراسة له بعنوان (عن شعر العرب وصنعته) (1856, 24-25) :" أنّ "تقسيم الشعر إلى أنواعه المعروفة غربيًّا، وهي: الغنائيّ والملحميّ والمسرحيّ تبدو غريبة بالنسبة للشعر العربيّ، أي أنّ له خصوصيّة تجب مراعاتها عند دراسته، ولا تصحّ مقارنته بأشعار الأمم الأخرى حتّى الهنديّة والفارسيّة". وأكد في خاتمة كتابه (١٨٥٦,٨٣) على أن: "دراسة هذا الشعر المتفرّد في شكله ومضامينه ستكون مفيدة لنا نحن الألمان في أكثر من وجه". ووافقهما في ذلك كارلوس لايل، كما في مقدمته النقدية المهمة على كتابه: ترجمات لمختارات من الشعر الجاهلي (Translations of Ancient Arabian Poetry)، حيث قال فيها (1930, xviii) : "إن شكل الشعر العربي القديم وروحه أمر متميز واضح، غير أنه ليس من السهل أن نجعله في حيز أحد هذه الأضرب التي يعرفها النقد الأوروبي؛ إنه ليس بملحمي ولا قصصي إلا حيث يكون وصف الحادث معينًا على إبراز صورة الشخصية، وأبعد من ذلك أن يقال عنه مسرحي لأن الشخص الوحيد والمقياس الوحيد المعروفين للمتكلم هما نفسه ومثله الأعلى الذي يعتقده".

هذا الإدراك من لايل لطبيعة الشعر العربي وخصوصيته خلص منه إلى الحديث عن تميز الشعر العربي عن الأوروبي في الشكل والروح والعمق الموضوعي، وهو الأمر الذي رتب عليه حقيقة التباين بينهما في المقاييس والأحكام النقدية.كما أنه جعل هذه الحقيقة إطارًا عاما عالج من خلاله بالتفصيل مجموعة من القضايا والمباحث النقدية المتعلقة بالشعر الجاهلي، والتي من أبرزها (1930, xi-xii):

- نشأة الشعر العربي القديم وازدهاره، وخصائصه العامة.
- وظاهرة تقصيد الشعر أو ظهور الشكل النهائي التام للقصيدة للجاهلية.
- وظاهرة المقطوعات الشعرية وسماتها الفنية.

- ومسألة تأثير الإسلام على الشعر، والتغييرات التي طرأت على اللغة في بعض مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها المعنوية.
- وقضية الرواية الشفوية للشعر الجاهلي وضياع الكثير منه بسبب عدم التدوين.
- وخصائص منظومة العروض العربي ونظام القافية التي ميزت الجرس الموسيقي والإيقاع الداخلي في القصيدة العربية بما يتعذر على بعض الأمم كالإنجليز مجاراتهم فيه، فصرح باطمئنان وثقة:"بأن ذلك فوق طاقة اللغة الإنجليزية، وأننا كي نقترب من نظام القافية العربي فإنه يلزمنا بذل تضحيات وجهود معتبرة في دقة الترجمة بأمانة وإخلاص"(1930, xiv).

ثانيًا: فهمه بيئة هذا الشعر الاجتماعية، وهي الأمة العربية، التي هو منها صدر وإليها يعود:

يرى لايل أن أمة العرب في الجاهلية قد نجحت في جعل الشعر مرآة حقيقية لواقعها وتطلعاتها، واستعرضت فيه خلاصة تجاربها مصورة فيه ما اعتراها من نجاح أو قصور، فبالنسبة إليه كان الشعر يمثل للعرب الوطن، فهو موطنهم التفاعلي الذي عاشوا فيه، فهو ديوان العرب، كما قال ابن عباس، وبيئتهم وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم (1930, xv). وقد ربط ذلك بقراءة تحليلة لبيت زهير بن أبي سلمى: [الطويل]

وإنّ أصدقَ بيتٍ أنت قائلُهُ بيتٌ يُقال إذا أنشدتَه صدقا

فاستنبط منه الارتباط الوثيق بين الشعر وصدق التجربة الحسية أو الوجدانية للشاعر، فمفهوم الصدق في بيت زهير قد قرأه لايل من خلال ذائقته الجمالية الخاصة، فرأى أنه يعني به "الحقيقة" أي حقيقة الواقع والتجربة، فقال في ترجمته (1930,i) :

Of all the verses thou hast made the fairest in praise

Is that whereof, when they hear, many say ـ"Yea, **that is the Truth**!".

وذهب لايل إلى أبعد من ذلك؛ إذ رأى (Saikia, 2021, 7) أنه من الأهمية بمكان للشعر الأوروبي أن يواكب ويتفاعل مع الشعر الجاهلي، ذلك الشعر اللاتقليدي والمدهش، الذي قدم في مرحلة مبكرة رؤية متطورة، بمخزونٍ بِكر من الصور البلاغية الرائعة والإحساس الشعري العميق.

"... Western literature could only benefit from exposure to the unfamiliar and striking way of looking at the world that early Arabic poetry offered, with its fresh stock of images, its vigorous poetic sensibility".

ثالثًا: فهمه الذهنية الفردية الخاصة للشاعر العربي، وبواعثه النفسية على قول الشعر وارتباطه الروحي به

يمكننا اعتبار التصور الخاص الذي وضعه لايل للعلاقة بين الشاعر العربي وقصيدته أحد أهم مفاتيح ذائقته النقدية التي مكنته من رصد مكامن التلاحم الحقيقية بين أجزاء النص الداخلية، وأبعادها الفكرية والنفسية؛ فلايل – إذ جعل القصيدة وطنًا للشاعر الجاهلي وللمجتمع العربي آنذاك – تحدث عن ما سماه: **حرية روح الشاعر** ضمن النص "The freedom of his spirit"، فالشاعر الجاهلي - في نظره – لديه روحٌ كامنة في تضاعيف القصيدة، وهو إنما يبثها خلال الأبيات مثيرًا بواعثها شيئًا فشيئًا من خلال صوره وخياله الشعري، حتى يكسب تلك الروح الكامنة قوة خاصة تحمل رسالته إلى العالم الخارجي. وبحسب تعبيره (1930, xviii) " فالشاعر يفتح مكنون صفحات قلبه تباعًا مرتكزًا على **قوة نفسه وحريّة روحه**". القصيدة إذن - وفق هذه الرؤية - ليست مجرد عمل فني نابع عن تجربة ما أو

حالة نفسية عابرة أو ترف فكري يمتزج فيه عبث الفرد بهزل الحياة وجِدّها أو حلوها ومرها، بل هي تمثل عالما خاصًّا بالشاعر، يحيا فيه بكل تفاصيله، ويريد من الآخرين أن يشاركوه هذه الحياة، ويدركوا صورها وظلالها المعنوية الكامنة خلف هذا التركيب اللفظي أو ذاك، أو تحت هذه الكلمة أو تلك، وشرط ذلك تحقق ثلاثة أركان أساسية: التجربة الصادقة للشاعر، ومعرفته الواقعية النابعة من صور الحياة المحسوسة وتفاعله معها، ومهارته الفنية في النظم المقتدر على الوزن الشعري والتزام قافية واحدة . يقول لايل (1930, xviii):" إنّ القصيدة العربية تضع أمامنا سلسلة من صور الحياة التي يحياها صاحبها، مصورة **بمهارة مقتدرة** واثقة من نفسها، **وبمعرفة (تجربة)** صادرة عن مشاهدة وممارسة، **ومن صور الأشياء** التي كان يتحرك بينها، ومن صور فرسه وجمله وحيوان الصحراء، وأوابدها ومناظر الأرض التي كان هو وهؤلاء جميعا يتقلبون في وسطها وتحيط بحياتهم". أما الدور الذي تلعبه تجربة الشاعر فيقول لايل (1930, xix): "ما كان يقوله الشاعر في قوافيه **قد جربه** هو نفسه، والذي يعجب سامعيه من قوله هو عينه الذي يعجبنا نحن الآن منه، وهو الصدق والصحة اللتان كان يصور بهما ما كان يعلمه هو ويعلمونه هم، ثم تضمينه فكرهم وحياتهم اليومية في أجود ما ينتقى من اللفظ، وأنبل شكل بياني تسمح به وتجيزه لغتهم".

رابعًا: فهمه جوهر القصيدة الجاهلية وكيانها الذاتي العميق الذي يرسم هويتها ويحدد منطلقاتها الجمالية

من خلال الفهم المعمق الذي اعتمده لايل لذهنية الشاعر وبواعثه النفسية فإنه قد توصل إلى قناعة بأن الشعر العربي هو أصح نموذج يمكن أن يوصف بأنه نقدٌ للحياة "a criticism of life" ، ولذلك قال: " لا شعر يصح وينطبق عليه تعريف ماثيو آرنولد Matthew Arnold - [الشاعر والناقد الإنجليزي] – أن الشعر **نقدٌ للحياة** أكثر من الشعر العربي، ولم تنجح أمة في تصوير نفسها مدى الدهر في أسمى ما ترقى إليه وأدنى ما تُسفّ فيه، وفي عظمتها كما في قصورها، كما نجحت أمة العرب، ولذلك فإن شعر الجاهلية هو حقًّا تاريخها، فيه عاش أولئك الأوائل حياتهم، ووجدوا فيه البيان الذي يعسر على من يحسن فهمه حقًّا أن يبالغ في نعت ما فيه من القوة وصدق الإخلاص" (1930, xviii-xi).

إن هذه القناعة بتوصيفها الشجاع للشعر العربي مقارنة بشعر أوروبا هي من كارلوس لايل إنصاف للقصيدة العربية وللشاعر العربي. ثم هي باب يلج منه إلى مناقشة بعض القضايا المهمة المثارة حول الشعر العربي القديم، والتي برأيي أنه ما كان ليتمكن من معالجتها واتخاذ صفة المدافع والمحامي عن التراث الشعري الجاهلي أمام محاكميه ومنتقصي قيمته من النقاد المستشرقين والمستغربين لولا توصله إلى تلك القناعة المرتكزة إلى فهمه المعمق والمعلل لأبعاد القصيدة وقيمتها للشاعر وبيئته الاجتماعية والحيوية؛ فلايل قد تنبه إلى أن في القصيدة الجاهلية نظاما داخليا خاصا يربط بين أجزائها التي تتراءى مهلهلة على المستوى الظاهر السطحي، ولذلك فقد عارض الذين رأوا أن القصيدة الجاهلية مفككة لا ترابط بين أجزائها، وأنها تعتمد على وحدة البيت الشعري فقط، وليس فيها أي وحدة عضوية "organic unity" كما هو الحال في الشعر الأوروبي. ومن أولئك النفر من المستشرقين غير المنصفين للقصيدة الجاهلية المستشرق الألماني ڤلهلم آلڤرد (الذي كان يسمّي نفسه على طريقة العرب وليم بن الورد البروسي) حيث صرح بأن النقاد الأوروبيين أقدر من علماء اللغة والأدب العرب القدماء على الحكم على ترابط القصيدة في مجموعها والعلاقات بين أجزائها المختلفة؛ ذلك أنّهم اهتموا بالجزئيّات؛ بالأبيات المفردة أو بكلمات بعينها إن كان قد أحسن اختيارها أم لا، «بينما نحن الذين تعوّدنا على المعالجة النقديّة للمادّة الشعريّة، فنميل إلى الشكّ منذ البداية؛ إذ نجد فيها تناقضات وأشياء مستحيلة وثغرات وإضافات متضاربة، لم يلاحظها هؤلاء العلماء **السذّج**"! (Ahlwardt, 1856, 28) فمن هنا تتبين لنا أهمية منهج الإنصاف الذي اتسمت به رؤية كارلوس لايل.

ثم إن لايل يقر بمبدأ الوحدة العضوية في الشعر الأوروبي، كما يقر بمبدأ وحدة البيت في الشعر العربي ولا ينكره، لكنه ينكر أن تكون القصيدة العربية مفككة أو أن تعدّ شظايا مجتمعة دون رابط تنسيقي حقيقي، أو – بحسب تعبير أدونيس – مجموعة وحدات مستقلة متكررة لا يربط بينها أي نظام داخلي (الطيب، ١٩٩٢، ١٠) .

وإذا أنعمنا النظر في المنهج الفكري الذي توصل به لايل إلى إثبات وجود نظام داخلي للقصيدة الجاهلية، بالرغم خلوها من مبدأ الوحدة العضوية، لم يسعنا إلا الاعتراف بدقة نظره وعبقريته التحليلية التي أنصف بها الشعر العربي، في موازنة دقيقة بينه وبين الشعر الأوروبي؛ فهو ينطلق من اعتبار أن القصيدة عند العرب وعند الغرب على حد سواء تشتمل على نوعين من المعاني والأفكار:

١- معانٍ جزئية تفصيلية يعبر عنها البيت الواحد، ضمن مبدأ: وحدة البيت. وهذا في الشعر العربي معروف غير مجحود، وهو في الشعر الأوروبي ثابت كذلك ومتداول عندهم، وإن كانت الأضواء لا تسلط عليه كثيرا قياسًا إلى نظيره العربي. فمكان البيت من القصيدة عندهم يشبه مكان الجملة التامة من الكلام الذي هي جزء منه. ومثل هذا الضرب من وحدة البيت في القصيدة شاع عند طائفة من مشاهير شعرائهم نحو: شكسبير، والإسكندر بوب، وكرستوفر مارلو، وأندرو مارڤيل (الطيب، ١٩٩٢، ٤/ ١٣ - ١٥).

٢- ومعنًى كليٌّ إجماليّ تعبّر عنه القصيدة بتمامها، وهو في الشعر الأوروبي له تمظهره الخاص الذي يميزه، وخصائصه التي تطبّع بها أسلوب شعرائه وفق الكيفية التي اصطلح عليها بالوحدة العضوية، لكنه في الشعر العربي قائم ومحقق في القصيدة بكيفية مغايرة، رأى فيها لايل نظاما داخليا دقيقًا خاصًّا بطبيعة الشعر العربي وذهنية شعرائه، يحقق فيها معنى عامًّا "the theme"، فمن لم يدرك تلك الكيفية حكم عليها بتفكك الأجزاء وانعدام الترابط بينها، وفقد إدراك جوهر القصيدة العربية والقدرة على التذوق الحقيقي لجمالياتها الكامنة في نسيجها الداخلي.

وخلاصة رؤيته: أن القصيدة الجاهلية فيها وحدة داخلية عامة جنبًا إلى جنبٍ مع وحدة المعنى الجزئية في كل بيت، وأنه لا تعارض ولا تنافي بين الوحدتين: وحدة البيت ووحدة القصيدة. فاستقلال البيت العربي بمعنى خاص لا يعني فك ارتباطه بما قبله وبما بعده في السياق الواحد المنسجم. يقول لايل: إن الصور المبثوثة في طيات القصيدة الجاهلية بالرغم من التفكك الظاهر وهلهلة الربط بين أجزائها وضعفه، تخضع خضوعًا لفكرة واحدة واحدة تنبع من مكنونات قلب الشاعر (1930, xviii) –

"... but all, however loosely they seem to be bound together are subordinate to one dominant idea, which is the poet's unfolding of himself...".

ويظهر بوضوح إدراك لايل الدقيق للنظام الداخلي في القصيدة العربية من خلال ترجمته للنصوص المختارة من عيون الشعر الجاهلي، التي استقاها من مصادرها الكبرى كالمعلقات وحماسة أبي تمام والمفضليات والأغاني للأصفهاني، ولا سيما منها (1930): معلقة امرئ القيس (XLIX)، ومعلقة لبيد (XLVII)، ومعلقة زهير (L)، وبائية النابغة "كليني لهمّ" (XLVIII)، وتائية الشنفرى المفضلية (XLV)، وبائية عبد يغوث بن وقّاص "نشيدالموت" "The Death-Song" (XLVI)، حيث رصد فيها وفي أخواتها ضروب المعاني العامة التي ميزت كلًّا منها، وكيفية ارتباط أجزائها الداخلية بنسيج موضوعيّ موحد (theme) موصول بفكر الشاعر وبيئته وقلبه.

خامسًا: إثباته صحة الشعر الجاهلي، ورده على المشككين فيه:

من أبرز القضايا الجدلية حول الشعر الجاهلي التي أثيرت بين المستشرقين في القرن التاسع عشر كانت قضية إثبات صحته والتشكيك في مرويات اللغويين والأدباء والمجاميع الأدبية. ولعل من أشهر من تناولها رافعًا لواء القول بعدم صحة ما وصل إلينا من أشعالر الجاهليين واعتباره أو أغلبها مزورة ومنحولة هو الإنجليزي دافيد صموئيل مرجوليوث. لكنه لم يكن الوحيد القائل بذلك بين المستشرقين ولا أولهم، بل له سلف منهم سبقوه إلى القول بذلك أبرزهم الألماني: ثيودور نولدكه، الذي كان أستاذًا للايل (أحمد، ٢٠١٣، ١١٧)، والألماني ڤلهلم آلڤرد، على تفاوت بينهما، غير أنهما لم ينالا ما ناله مرجوليوث من الشهرة في هذه القضية لتقدمهما الزمني عنه، ولأنهما كتبا تلك المقالات باللغة الألمانية في وقت لم يكن المثقفون العرب عابئين بالاطلاع على النتاج الألماني الذي تناول لغتهم وأدبهم. ومهما يكن من شيء فإن لايل كان له موقف متفرد عنهم ومعارض لما سلكوه من منهجية أوصلتهم إلى تلك الاستنتاجات والأحكام. وهو في معارضته لهم وإثبات صحة الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا اليوم قد انطلق من منهج علمي ارتكز على عدة مرتكزات محورية، أبرزها (1918, xx-xxvii):

١. عدم اتخاذ موقف واحد من الرواة القدماء، بل ميز بين ثقات الرواة والرواة الوضاعين، وحسم موقفه بتصديق الرواة الثقات واعتماد نقلهم عن العرب، خلافًا لڤلهلم آلڤرد ومرجوليوث اللذين وقفا موقفا واحدا من كل الرواة دون تمييز بين صادق وكاذب، بل عمما عليهم تهمة الوضع والنحل! ويرى لايل – بنظرة موضوعيّة - أنّ تهمة الوضع في الرواية تكاد تنحصر في حمّاد الراوية وخلف الأحمر، وهما - مهما كثرت الاتهامات لهما بشأن تزييف الشعر القديم - ليسا سوى اثنين فحسب بالمقارنة مع عدد غير محدّد من رواة القبائل، فضلًا عن الرواة العلماء في الكوفة والبصرة وبغداد، وهم الذين نقدوا ما يحمله الرواة فحكموا عليه بالأصالة أو التزييف، ووثّقوه ودوّنوه وشرحوه، وبالتالي فهو يضع ثقته في هؤلاء الرواة وفيما رووه من أشعار.
٢. أن القول بوجود شعر مزيف يستلزم لا محالة وجود أصل يحاكى! وهذه فعلا ملاحظة بدهية وذكية منه؛ فيرى لايل أنه على تقدير صحّة نسبة الوضع إلى كل من حماد وخلف، فإنّ هذين الراويين لم يكونا سوى مقلِّدين لأسلوب في نظم الشعر كان قد تأسّس قبل الإسلام بمدّة طويلة، ومارسه العديد من الشعراء المخضرمين والإسلاميّين والأمويّين، ودوّنوه كتابةً، ولم تنقطع سلسلة الرواية، فالطبقة الأخيرة من الشعراء كانوا يعيشون ويؤلّفون في الوقت الذي كان فيه العلماء يعملون على جمع الشعر القديم وتدوينه، ولا يمكن إثارة شبهة التزوير بشأنهم. وأمّا شعر الجاهليّة، فربّما قلّده حمّاد وخلف، لكنّ حقيقة التقليد تستلزم وجود أصل يحاكى!
٣. النظام العروضيّ المحكم للشعر القديم يدل على أنّه كان نتاج عمليّة تطوير مستمرّة، اشترك فيها عدد لا يحصى من الشعراء، واستغرقت وقتًا طويلاً، حتّى أنتجت هذا النظام العروضيّ المتنوّع ذا القواعد المنتظمة، التي يسير عليها كلّ ما وصل إلينا من أشعار جاهليّة، ما عدا استثناءات نادرة للغاية.
٤. التزام الشعراء بتقاليد فنّيّة وموضوعيّة محددة يسيرون عليها في بناء قصائدهم، فهذه التقاليد لم تتهيأ خلال مدّة قصيرة، ولا هي نتاج جهد فرديّ يتيح نحله ووضعه، بل هي نتاج جهد جماعيّ استغرق مدّة طويلة أيضًا، بحيث صار للقصيدة العربيّة تقاليدها في البناء والتصوير الفنّيّ وتنوّع الأغراض الشعريّة.
٥. عدم اعتبار مجرد الرواية الشفهية للشعر العربي دليلا طاعنا أو حجة غالبة على اتهام الرواة بالوضع أو الحكم على النتاج الذي بين أيدينا بالتزييف أو التشكيك فيه بالرغم مما اعتراه من اضطراب في الروايات ما بين اختلاف أو زيادة أو نقصان، لأن هذا التغيير في الرواية وإن حصل وتعذر تلافيه بحكم طبيعة الذاكرة البشرية مهما قويت لا يصح اعتماده دليلا على نفي الأصل وإثبات التزوير في الكل أو المعظم أو على تلاعب

الرواة، كما في نظرية الاحتيال والمؤامرة التي روج لها مرجوليوث، بل على العكس، فقد رأى فيه لايل دليلا على الأصالة، ولا سيما إذا نظرنا إلى الكتابات العبرانية المتزامنة مع تلك النصوص، فإننا نجد بينها تماثلا واشتراكا مع الشعر العربيّ في ذكر حيوانات بعينها من حيوانات الصحراء، مثل: المها، والغزال، والثور الوحشيّ، والماعز الجبليّ، والنعام، وهي التي يكثر ورودها في المشاهد التشبيهيّة التي يؤلّفها الشعراء الجاهليّون عند وصف الناقة. ويستدلّ لايل من هذا الاشتراك على نشأة مشتركة في بيئة مشتركة، وبالتالي على أصالة هذا الشعر.

٦. اعتماد منهجية الحكم على الكل انطلاقا من الكل وليس التعميم المبتور المنطلق من الجزء، والعمدة في ذلك هو فحص مضامين القصائد المروية، كما هو الحال في قصائد ديوان المفضليات مثلا، وفحص أخبار شعرائها والظروف المحيطة بها قبل الحكم عليها، خلافًا لمنهجية مرجوليوث المتسرعة والتي تعمم الأحكام على الكل انطلاقًا من حالة جزئية فردية، كما هو الحال في شعر السموأل، الذي رأى أن ما نسب إليه من شعر هو من تأليف الرواة المسلمين بهدف تمجيد قيم الفتوة والبطولة عند العرب في الجاهلية والتفاخر بأبطالها؛ فهذا إن صح في حالة السموأل فهو لا يعدو كونه حالة فردية لا يصح وفق أي منهج علمي معتبر تعميمها على نتاج أمة بأكمله أو غالبه. ولذلك فقد رأى لايل أنّ ما يجب أن نستنتجه من القصص التي تروى عن حمّاد وخلف ليس رفض الأشعار القديمة والحكم عليها بأنّها مزيّفة، بل وجوب تدقيقها بعناية عن طريق كلّ الأدلّة المعاصرة لها وما يتعلّق بمحتواها وأسلوبها وخصائصها المميّزة، وذلك لرؤية ما إذا كانت أيّة حالة بعينها تشي بالتلاعب أو الاضطراب أو التزييف، وإلّا فإنّ الأخذ بأحكام العلماء القدامى على هذه الأشعار هو الذي ينسجم مع الحسّ السليم، ويضرب مثلاً على ذلك بالمفضليّات؛ فالافتراض البدهيّ بشأن هذه القصائد المائة والست والعشرين، أنّها قصائد أصيلة، تستند إلى مرجعية جامعها المفضل الضبي الكوفي وهو الثقة الخبير وناقد الشعر البصير الذي عاصر حمّادًا وغيره ممن اتهم بالوضع، واستنكر فعلهم وشهّر بهم (الأسد، ١٩٩٦، ٣٧٣).

هذا ولم يقف لايل عند حدود معارضة تشكيكات المستشرقين، بل إنه قد أظهر دهشته وتعجبه من تشكيك بعض مشاهير الرواة والنقاد العرب القدماء في نسبة القصيدة الموسومة بلامية العرب إلى الشنفرى، وناقشهم في ذلك بالحجج العلمية، ليتوصل إلى إثبات نسبتها إلى الشنفرى وفاقًا لرأى جمهور الرواة والنقاد (الطيب، ١٩٩٢، ٤/ ٣١٠).

والحاصل: أن هذا الدفاع المنهجي الشجاع والحاسم عن أصالة الشعر الجاهلي المنقول والمتداول ضد موجة التشكيك فيه كانت نابعة عن قناعة راسخة في عقل كارلوس لايل، ولّدتها رؤيته العميقة وذائقته النقدية لجماليات ذلك الشعر، والتي من خلالها بنى مرتكزات دفاعه الواعي، في مزيج من الموضوعية والإعجاب والانبهار. وهذا كان نتيجة عقود من معايشة القصيدة الجاهلية والحياة في تفاصيلها الدقيقة التي أكسبته خبرة كبيرة وثقافة غنية مكنته منه النظر العميق والمنصف دونما تكلف أو اضطراب أو تشتت، وهذا كله كان من أبرز نتائج تأثره بالشعر الجاهلي وصقل ذائقته النقدية، التي لولاها لما تسنى له إطلاق تلك المواقف الكبرى في عدد من القضايا النقدية المحورية المتصلة بالشعر العربي القديم.

الخاتمة

لم يكن كارلوس لايل وحده بين المستشرقين من تأثر بالشعر العربي القديم وتغنى به وأنصفه، لكنه كان ذا منهج متفرد في الرؤية والتحليل المعمق، الذي يجمع بين طول الباع في الدرس الموضوعي الرصين، والملاحظة العلمية الدقيقة، والتمكن من أهم آلات الناقد الأدبي وهي ذائقته النقدية المرهفة، التي تمكنه من استبطان دقائق المعاني

وإيجاد الراوبط الداخلية في البناء الشعري، ورؤية ظلال المعاني كما أرادها شعراؤها، وكما فهمتها بيئتهم التي تغنت بشعرهم وسجلته وروته للأجيال عبر العصور. ويبقى لايل قطب الرحى بين نظرائه من المستشرقين والمستغربين في تلك الحقبة التاريخية، فجهوده حقيقة بأن تخصص لها مساحات أوسع في الدراسات النقدية الحديثة، وفي الدراسات الأدبية عمومًا، لما فيها من فكر وذوق وتحليلات غنية بالحقائق والتفاصيل الدقيقة وإنصاف منهجي قل أن يظفر به عند غيره. وأختم بما وصفه به معاصره الناقد الأمريكي مارتن سبرنجلنج (Sprengling,1923, 207):

"Any man who has read what is at all worthwhile in Arabic poetry, in the original or in English translation knows and loves Sir Charles James Lyal".

مراجع البحث:

أولًا: المراجع العربية

- أحمد، عبد الباسط (٢٠١٣)، ديوان عبيد بن الأبرص بين تحقيقين. مجلةالتراث، جامعة زيان عاشور، المجلد ٣ (٢): ١١٩ – ١٣٧.
https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/323/3/4/113280
- الأسد، ناصر الدين (١٩٩٦)، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. (ط٨)، بيروت، دار الجيل.
- الأنباري، أبو محمّد القاسم بن محمّد (١٩٢٠)، شرح ديوان المفضليّات. (ط١)، تحقيق: كارلوس يعقوب لايل، مطبعة الآباء اليسوعيّين، بيروت.
- الطيب، عبد الله (١٩٩٢)، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها. (ط٢)، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- Alwardt, Wilhelm (1856), Ueber Poesie und Poetik der Araber, Gotha.

https://ia600503.us.archive.org/24/items/ueberpoesieundp00ahlwgoog/ueberpoesieundp00ahlwgoog.pdf

- Litt, D, Lyall, Charles, Some Aspects of Ancient Arabic Poetry, as illustrated by a little-known Anthology. By Charles J. Lyall, K.C.S.I., D.Litt. Published for the British Academy by H. Milford, Oxford University Press, Amen Corner. 1s. 6d. net.

- Layll, Charles (1930), Translations of Ancient Arabian Poetry: Cheifly Pre-Islamic with an Introduction and Notes, London .
- Lyall, Charles (1921), The Mufaddaliyat: An Anthology of Ancient Arabian Odes, vol. I, edited with translations and notes, Oxford, London.
- Lyall, Charles (1918), The Mufaddaliyat, vol. II, edited with translations and notes, Oxford, London.
- Lyall, Charles (1913), The Dīwāns of ʿAbīd Ibn Al-Abraṣ of Asad and ʿĀmir ibn aṭ-Ṭufail, of ʿĀmir Ibn Ṣaʿṣaʿah, edited with translations and notes, Leyden, Brill.

- Saikia, Robin (2021), *Charles James Lyall and Pre-Islamic Arabian Poetry*. https://robinsaikia.wordpress.com/2021/04/28/charles-james-lyall-and-pre-islamic-arabian-poetry/.

- Sprengling, Martin. (1923). *In Memoriam: Sir Charles James Lyall*. The American Journal of Semitic Languages and Literatures, 39(3), 207–217. http://www.jstor.org/stable/528631.